كورونا يستدعي الميتافيزيقا من جائحة الطّبيعة إلى جوائح العقل الحديث

محمود حيدر*

مقدمة

لم يكن ظهور وباء كورونا أمرًا عارضًا في تاريخ الإنسانيّة المعاصرة؛ ففي زمن قياسيّ سيتحوّل هذا الوباء إلى جائحة كونيّة وضعت الإنسان أمام استحقاقات كبرى لم يعهدها من قبل. فإلى كونها أخذت بناصية الفرد الإنسانيّ إلى الوقوف بذهول أمام مصيره بوصفه كائنًا حيًّا، فقد دفعت هذه الجائحة الحضارات المختلفة، وخصوصًا حضارة الغرب الحديث إلى التساؤل عمّا يتهدّد مصيرها في العقود الأولى من القرن الجاري.

يتاخم هذا البحث تداعيات الجائحة على الفضاء الميتافيزيقيّ والمعرفيّ للحضارة الغربيّة المعاصرة. ولقد ارتأينا في المُجمل أن نتناول هذه التداعيّات عبر الدوائر الآتية:

أولًا: الظهور المباغت للوباء، وما نجم عن ذلك من مراجعات لسلسلة طويلة من الثّوابت العلميّة والمعرفيّة التي حكمت بِنْية الحضارة الحديثة سحابة خمسة قرون من ولادتها.

---

* مُفكّر وأستاذ محاضر في الفلسفة- لبنان.

ثانيًا: المنهج الّذي اعتمده العقل الإيكولوجيّ الغربيّ، والنّتائج التي ترتّبت على سلوكه في التّعامل مع الطبيعة وخصوصًا لجهة ما أدّى إليه هذا السلوك من تدمير للنّظام البيئيّ وانتشار الأوبئة والجوائح.

ثالثًا: نقد العقل الحديث بوصفه عقلًا صانعًا للتّقنية الفيروسيّة انطلاقًا من قيم المنفعة ومنطق المنافسة.

رابعًا: نقد سلوك الحكومات الغربيّة في مواجهة الوباء، وعجزها عن احتوائه؛ ما أسفر عن ظهور أنموذج في التعامل مع مواطنيها، فضلًا عن المواطن العالميّ، على نحو يناقض قيم الحرّيّة والعدالة وحقوق الإنسان.

خامسًا: بيان الآثار المُتوقّعة على العلوم الإنسانيّة بوصفها قيمًا مؤسِّسة للحضارة الحديثة، حيث باتت تلك العلوم مع استحكام الجائحة موضع ريب وشكّ وعدم يقين؛ ما يفترض إعادة النَّظَر بمناهجها على الجملة، بدءًا من الفلسفة، وعلم الاجتماع، وعلم النّفس، إلى العلاقات الدوليّة، والفكر السّياسيّ، والاقتصاديّ، إلخ...

استدعاء السُّؤال الميتافيزيقيّ

قد يبدو الكلام على الأثر الميتافيزيقيّ لجائحة كوفيد 19، مثيرًا للاستغراب للوهلة الأولى؛ غير أنّ الجائز وسط الاضطراب الّذي يشهده العالم اليوم، أن يُطرح السّؤال الآتي تلقاء حادث جلل لم تتيسَّر الإجابة عنه بعد: ماذا لو انقلب سؤال الفلسفة، من مساءلة الإنسان لنفسه والوجود من حوله، إلى سؤالٍ توجّهُه الطبيعة إلى الإنسان ولا يملك أن يأتيها بإجابة ناجزة؟

لا يتداعى هذا التّساؤل على سبيل الاستئناس في زمن الرّخاء؛ بل هو يُطرح إثرَ جائحةٍ اختزلت سيلًا هائلًا من أسئلة الفلسفة، ثم لتستظهرها بسؤال يقضُّ مضاجع البشريّة وهي ترتع في محاجرها الموصدة: هل كان لأحد أن يتخيَّل كيف أنّ كائنًا يتسرّبُ إلينا من مكان لم يدركه سلطان العلم بعد، ثمّ يروح يستحثّ الآدميّة المعاصرة من أجل أن تستمطر النّجاة من سماء الغيب؟...

ربّما لم يعد من مانع يحول دون الجهر بمثل هذا السّؤال الّذي يحيل القضيّة إلى فضاء الميتافيزيقا. ذلك بأنّ تحصيل الإجابة عنه يتّخذ مسارًا متعاظمًا متى عرفنا أنّ علم الكونيّات على عظيم ما قدّمه للبشريّة يقف اليوم مرعوبًا من كائنٍ لا

مرئيّ يجتاحه بلا هوادة... كلّ الصّورة تبدّلت وأمست على نشأةٍ جديدةٍ. والعالم الّذيً كان قبل الجائحة صار غير العالم الّذي هو فيه الآن، وإنسان القارات الخمس دخل في انذهال لا قِبَل له به. ثمّ انبرى إلى التّساؤل عمّا لو كانت يدًا خفيّة حطّت بغتةً على وجه الأرض، وأخفت عن ساكنيها سرّ غزوتها المُدمّرة...

أغلب الظّنّ، أن يفضي مثل هذا الانطباع إلى التفكّر بأمر هذا الكائن وبالآثار المُترتّبة على ظهوره، على النّحو الّذي لم تألفه حلقات التّفكير ودوائر البحث العلميّ من قبل. ومردّ الأمر أنّ القضيّة ليست منحصرة بالاستفهام عمّا إنْ كان منشأ الجائحة من الطبيعة نفسها، أو هو من فعل فاعل بشريّ. فالنّتيجة المستفادة واحدة أنّى كانت الإجابة. سوى أنّ الشيء الأهمّ في حضور الجائحة أنّه يتعدّى نطاقها البيولوجيّ المحض؛ ليتاخم مجمل ما أنجزه الإنسان من معارف، وعلوم، وأنظمة، وقيم. وممّا استثار أسئلة غير مسبوقة أنّ دولاً ومجتمعات على الرّغم من حداثتها الفائضة وجدت نفسها تلقاء فيروس هو أشبه بكائن ميتافيزيقيّ لم يملك معه علماؤها سوى بيانات الترشيد للإفلات من شبّاكه القاتلة. ولأنّ أثر كورونا يأخذ اليوم سعة كونيّة لم تشهد البشريّة مثيلًا له، لم يعد النّقاش يقتصر على استقراء وتحليل ما ينطوي عليه نظام الطبيعة من حوادث لا تزال عصيّة على فهم مواقيتها كالزلازل والأعاصير والأوبئة؛ بل هو نقاش يتمدّد نحو الإجابة عن السّؤال الأشدّ هولًا وهو بقاء النّوع الآدميّ، أو فنائه!؟

صحيح أنّ هذا السّؤال المفضي إلى الهلع الوجوديّ كانت سألته الحضارات البشريّة لمَّا كانت تخوض حروبها العظمى، كما سألته الفلسفة على امتداد حقبها من قدماء اليونان إلى أزمنة الحداثة الفائضة؛ غير أنّ مثل هذا السّؤال على أهمّيّته ظلّ ساكنًا في عالم الذّهن، ولم يخرج عن كونه سؤالًا افتراضيًّا. أمّا اليوم فقد غدا في قلب الواقع الحي، حيث يداهم الفكر والجسد والنّفس بلا هوادة. وحيث كلّ شيء توقّفت سيرورته حتى أوشك المواطن العالميّ على المبيت في كهفه البيولوجيّ ولا يفارقه الإحساس بأنّه صار قاب قوسين، أو أدنى من حافة القبر. وما لا بدّ من الالتفات إليه هنا، أنّ اللّحظة التي يجب أن يختلي فيها العقل العالميّ بنفسه، من أجل مواجهة هذا الامتحان الكبير هي لحظة لم تَحِن بعد. فالمركزيّة الغربيّة بصيغتها النيوليبراليّة لا تزال على سيرتها الأولى من الشّعور بتفرّدها واستعلائها الحضاريّ، وربما ستبقى كذلك حتّى بعد اضمحلال الجائحة.

إذن، ليس جديدًا على الجوائح -وهي في ذروة امتدادها- أن تستدعي السّؤال عن مصير النوع البشريّ. ومن البيّن أنّنا بتنا اليوم في قلب هذا الاستدعاء؛ حيث يستشعر الإنسان فردًا وجماعة وكتلًا حضاريّة لحظة الخطر الأعظم؛ أي اللّحظة الفاصلة بين الفناء والبقاء. ذلك ما كان قد استَشْرفه الفيلسوف الفرنسيّ جان غيتون[1] بعد الحرب العالميّة الثانية، لمّا رأى أنّ الإنسانيّة عندما تقف أمام خطر التّهديد اللّامتناهي لوجودها، تندفع نحو ما يسمّيه بالتفكير الميتاستراتيجيّ، وإفراغ أسئلتها في فضاء الميتافيزيقا، حيث يدخل الإيمان بالغيب كعامل جوهريّ يدفع عنها الهلع من فنائها المحتوم.

قد يكون علينا، ونحن بصدد الوقوف على المنهج الّذي واجه فيه العقل الغربيّ جائحة كورونا، أن نبتدئ من التساؤل الآتي: مَنْ كان منّا يتصوَّر اللّحظة التي يجدُ فيها العقل الحديث نفسَه في مرآة نفسِه كمثل اللّحظة التي يعبرها اليوم؟.. ربّما للمرّة الأولى مذ ساد هذا العقل عصر التّنوير في أوروبا سيباغته خوفٌ غير مسبوق على المصير. كأنّ خطبًا جللًا يدعوه إلى الوقوف على خلل جوهريّ في تكوينه. وعلى أغلب الظنّ، إنّ جائحة كورونا ستنبّه كثيرين ممّن سوَّقوا ونظَّروا للعقل المحض إلى هذا الخلل الكامن في أصل تكوينه. ربما علينا أن نرى إلى المسألة بتبصُّر ميتافيزيقيّ؛ لكي ندرك السّبيل إلى فهمها. الفَرَضية التي نأخذ بها في هذا المقام أنّ المعضلة بدأت لمّا أشاح التّنظير الفلسفيّ ببصره عن الأصل الذي جاءت منه الموجودات، ثمّ مضى مأخوذًا بدهشة العالم المترامي الذي يستطيع العلم أن يحيط بكل شيء فيه. عندئذٍ ظهر العقل كما لو أنّه يثلم نفسه بملء إرادته.

ربما لم يدرك هذا العقل حين آنس إلى دنيا الممكنات، أنّه بفعلته تلك، سوف يدفع نفسَه دفعًا إلى كهف القطيعة مع الأصل المتعالي الّذي منه جاء. حسِبَ هذا العقل أنّه أفلح بالميثاق الأعظم الّذي سيتيح له فكّ لغز الوجود من خلال ثورته العلميّة، وقع في تيه الأنانيّة ومعاثرها.. لقد أخذته العزَّة بـ «أناه» حتّى ظنّ أنّه الإله الفائق الذّكاء، فلا يدع صغيرة ولا كبيرة إلّا وقف على سرّها.. أو أنّه الكائن الفريد المكتفي بذاته، وليس له بعدئذٍ من حاجة إلى من يسدّ نقصه متى استشعر النّقص، ولا إلى من يمدّه بالاغتناء متى استشعر الفقر... ومن البيّن أنّه منذ جناية أرسطو الأولى إلى غفلة الوَرَثة المحدثين، من الّذين استطابوا الاستراحة الأبديّة في دنيا

1- أنظر: جون غيتون - الفكر والحرب، دار الطليعة، بيروت، 1986م، ص 189.

المحسوسات، اتّخذت هجرة العقل دربة الغلوّ في تمجيد الذات، إلى حدّ نسيان الكينونة حسب الفيلسوف الألمانيّ مارتن هايدغر(1976-1889)[1].

لكي لا يُفهم من كلامنا أنّا نرمي إلى ذمّ العقل على الإطلاق، نوضح في ما يلي ما قصدناه لجهة كونها جائحة مساوقة لجوائح الطّبيعة. ففي واقع الأمر، إنّ نقدنا لسيرورة العقل في التاريخ الحديث لا يعني مسًّا بأصل تكوينه، أو انتقاصًا من جلال قدره وما يختزنه من الحكمة ومحاسن التدبير.. وللمزيد من البيان، نقول: إنّ العقل في أصل نشأته وعلّة وجوده، هو أوّل الموجودات وأشرفها؛ بل هو الموجود المفارق الّذي اختُصّ به الكائن الآدميّ، لكن محلّ الإشكال هنا، على وجه التّعيين، ما رسمه العقل اليونانيّ من تأسيسات دنيويّة للميتافيزيقا، حيث شكّلت الفلسفة الحديثة تتويجًا صارخًا لها؛ إذ مع استحواذ المنعطف الأرسطيّ على نظام التفكير في الحضارة المعاصرة بلغ العقل خاتمته الانفصاليّة بوصفه عقلًا محضًا غايته الكبرى الاعتناء بالمقولات العشر.

بذلت الفلسفة مذ ولدت، وإلى يومنا الحاضر ما لا حصر له من المكابدات. اختبرت النومين (الشيء في ذاته)، والفينومين (الشيء كما يظهر في الواقع).. لكنّها ستنتهي إلى معضلة العجز عن الوصل بينهما. كانت الذّريعة، أنّ العقل لكي يحصّل العلم ليس عليه مجاوزة دنيا المحسوسات في الاختبار والتجربة. ومِنْ ثَمَّ، لا ينبغي له معرفة ما يمكث وراء عالم الحِسّ. على هذا النّحو، كان لأهل الفلسفة الأولى وورثتها من الحداثويّين، أن يختاروا راحة العقل ليعرِضوا عن سؤال الوجود بما هو استفهام عن المبدأ المُؤسِّس، ثمّ ليستغرقوا في لجّة لا قاع لها من الاهتمام والعناية بالموجودات الفانية... ذاك ما ستفصح عنه معاثر الحضارة الحديثة، لمّا غزاها كورونا وهي في ذروة استعلائها واعتزازها بذاتها.

عند تلك اللّحظة بالذات، ظهرت الحداثة الفائضة عن حدّها، كما لو أنّها المشهد الأخير لحضارة «العقل الحسير». وهو في الواقع العقل نفسه الذي أشعرته جائحة كورونا بقصوره الشّديد عن احتواء وباء مستحدث قد ينتزع الحضارة البشريّة من جذورها. وليس من ريب أنّ ذلك كان بالنّسبة إلى أهله مدعاة لحسرة

1- ذهب هايدغر في تأصيل فكرة «نسيان الكينونة» في كتابه الشهير الكينونة والزمان (Being and time) ومؤدّى تلك الفكرة أنّ الإنسان الحديث كلّما مضى في منجزاته التقنيّة، ازداد نسيان ما هو جوهريّ في الوجود.

حيال حادث كونيّ لم يدخل في حساباتهم، ولم يقدروا على احتواء تداعياته على صُعُد الحياة المعاصرة كلّها. لكن التمظهر الأشدّ قسوة لهذا المسار الّذي سكنت إليه الحداثة قرونًا طويلة أن «دابَّة الأرض» التي ظهرت على حين بغتة، توشك أن تغلب دابَّة العقل المكتفي بذكائه...

صدمة العقل وانذهال العقلانيّة

يبيّن الفيلسوف الفرنسيّ ميشيل أونفري في معرض طروحاته حول تداعيات الجائحة أنّ دراسة مُتأنّية للمعارف التاريخيّة، أو ما يسمّى إبيستمولوجيا التاريخ، تجعلنا ندرك أنّ التصوّرات التي تُقدم لتحليل انهيار الحضارات هي عبارة عن تأمّلات فلسفيّة ذاتيّة. وقد ظهرت في الآونة الأخيرة من جانب فلاسفة وعلماء اجتماع تفسيرات بيئيّة، تربط انهيار الحضارات بمراحل شهدت حرارة أو برودة مناخيّة، أو تدميرًا للغابات والأحراج على نطاق واسع أو بالمجاعات والأوبئة. فالطاعون الأنطونيّ -على سبيل المثال- أدّى، في نهاية القرن الثاني، دورًا في سقوط روما. صحيح أنّ الوباء الّذي يتسبّب به فيروس كورونا سيؤدّي إلى انهيار الاقتصاد، ولكن من غير المعلوم كيف سيتعامل الغرب مع الأمر. وعليه، لا يمكننا التذاكي أمام ما يفرضه الفيروس على تطوّر علم الأحياء؛ إذ قد يظهر فيروس أشدّ فتكًا، ويعيث خرابًا في الكرة الأرضيّة، ويُفرغها من جزء كبير من الكائنات البشريّة[1].

ربّما علينا بإزاء هذا المنحى التشاؤميّ أن نتساءل عمّا إذا كانت الجائحة ستعيد النَّظَر في بِنْية العقل الحديث ومناهجه وطرق عمله؛ إذ عند هذا التّساؤل يصير من الضّروريّ بيان حقيقة متّصلة بمبادئ العقلانيّة ومناهجها الّتي قامت عليها حضارة الحداثة. ولقد رأينا كيف جرى توظيف العقلانيّة في نظريّة «مناعة القطيع» الّتي أوصى بها رئيس الوزراء البريطانيّ بوريس جونسون شعبه؛ لكي يتكيَّف مع الوباء. لكن النّتائج، ما لبثت بعد وقت قصير، أنْ جاءت كارثيّة في عدد الإصابات ليس في المملكة المتّحدة فحسب؛ وإنّما على مُجمل دول الاتّحاد الأوروبيّ. وحقيقة الأمر أنّ نظريّة «مناعة القطيع» تلك تجد جذورها الثقافيّة في البِنْية المؤسِّسة

1- ميشيل أونفري، من حوار أجرته معه الباحثة إيمان الرياحي ونشرته جريدة النهار اللبنانيّة، بتاريخ 26-3-2020م.

للحداثة الغربيّة.

ولا شكّ لدينا أنّ من أظهر الجنايات التي اقترفها عقل الحداثة، اختراعه لمذهب حمّله اسمه ليكون وليًّا على الإنسانيّة المعاصرة ومرشدًا لها.. فالمعروف أنّ دعاة المذهب العقلانيّ يزعمون أنّ لديهم حزمة كاملة من الإجابات الكبرى، على حزمة كاملة من الأسئلة الكبرى: من السّؤال لماذا كان الوجود وليس العدم، إلى الاستفهام عن الكيفيّات المناسبة لتنظيم المجتمع والدولة وقيادة حركة التاريخ... لذا، عُدّت النّزعة العقلانيّة، وفق الصّورة التي ظهرت بها خلال القرنين السّادس عشر والسّابع عشر في الغرب، نسَقًا ميتافيزيقيًّا ناجزًا؛ بل إنّها عوملت في أكثر المواضع والأحيان، بوصفها بديلًا عن الدين... وللإيضاح أكثر، نشير إلى أنّ من مفارقات العقلانيّة أنّها تعاملت مع العلم بوصفه موضوعًا من مواضيع نشاطها الفكريّ، وتاليًا بوصفه تقنية فضلى في سياق توظيفاتها الأيديولوجيّة. وضمن هذا المنحى، تمّ الاستيلاء على مقاليد الثّورة العلميّة، وتوظيفها لخدمة أيديولوجيّتها الحاكمة على حضارة الحداثة برمّتها. على هذا النّحو، سنرى كيف أسَّست العقلانيّة لسيادتها من خلال قاعدتين ستمهّدان لتاريخ مديد من الجوائح سواء في عالم الفكر والعلوم الإنسانيّة، أم في عالم الطّبيعة والنّظام الإيكولوجيّ.

* القاعدة الأولى: اعتقاد العقلانيّة بأنّ العلم والتفكير العلميّ قادران لوحدهما أن يحدّدا ما هو حقيقيّ وما هو غير حقيقيّ. وإنّ كل شيء يجب أن يخضع لقوانين الفيزياء والكيمياء والبيولوجيا، أو أيّ فرع آخر من فروع العلم.. أمّا أمور مثل: الإيمان بالغيب والنّزعات الروحيّة؛ بل وحتّى الشّعور بالجمال والحدس والعاطفة والأخلاق، فقد اختزلتها النّظرة العقلانيّة إلى مجرّد متغيّرات في كيمياء الدماغ الّذي يتفاعل مع مجموعة من القوانين الميكرو- بيولوجيّة المرتبطة بتطوّر الكائن البشريّ...
* القاعدة الثانية: الاعتقاد بأنّ الغاية من تحصيل المعارف هي التحكُّم بالعالم الخارجيّ والهيمنة المطلقة على الطبيعة. وبذلك، يصبح همُّ الغرب مرتكزًا في العثور على الطريق الأمثل لتحقيق هيمنته وإشباع جوعه الضّاري للثروة والتكاثر.. ولو حلّ الفساد في سماء أهل الأرض، وفي بحرهم وبرّهم وما تحت الثرى...

هاتان القاعدتان سوف تُؤسّسان لجدل مستدام في الغرب الحديث منذ اللّحظة

التي احتدمت فيها الخصومة الكبرى بين الدين والعلم. فقد كان التساؤل الأثير منذ عصر النّهضة في القرن الثالث عشر، وإلى أزمنة ما بعد الحداثة يدور حول ما إذا كان العلم سيأخذ الفعلَ الإلهيّ بالحسبان، ويعترفُ بجريان الإرادة الإلهيّة في الكون[1]؟

هذا السّؤال شكّل أحد أهمّ مفاتيح السّجال حول منزلة الدين في العقل العلميّ الحديث. يقرّر عقل الحداثة كما تعلمون، أنّ فهم العلم يكون وفق الشروط الخاصّة به، ولا ينبغي له أن يعتمد على أيّ شيءٍ خارج ذاته. وهذا الاعتقاد يختزل مُجمل تراثَ عصر التّنوير بقضّه وقضيضه. لا سيّما في رؤيته العالَم بوصفه آليّةً مادّيّةً مستقلّةً، والعقل البشريّ بوصفه مفتاحًا لفهم طريقة عمل تلك الآليّة. وتبعًا لأصحاب النّزعة العلميّة، فإنّ كلّ إشارة إلى العناية الإلهيّة بالعالم تُعدُّ أمرًا فائضًا عن الحاجة، أو هبوطًا إلى اللّاعقلانيّة. الحركةُ التنويريّة سلّمت جدلًا بقوّة العقل البشريّ وعُدّت العقلانيّة حقيقةً قُصوى. وبسبب ذلك، أوشك النّاس على تأليهها كما حدث بعد الثورة الفرنسيّة لمّا جرى العمل على تحويل الكنائس إلى «معابد للعقل»، والمسيحيّة إلى دين مدنيّ موازٍ لإيديولوجيّة العلمنة. ولسوف يصّاعد هذا التّحويل القهريّ لتتلازم العقلانيّة والمادّيّة ضمن مفهوم واحد إلى الحدّ الّذي أوشكت فيه «العقلانيّة» أن تكون نظيرًا للإلحاد.

إخفاقات ما بعد الحداثة

لم تلبث العقلانيّة أن خضعتْ للتّحدّيات التي افترضتها حركة «ما بعد الحداثة». قامت هذه الأخيرة على نقد النّظام الصّارم لميتافيزيقا الحداثة وتفكيكه لا بقصد بناء نظام بديل؛ وإنّما لإطلاق سيل هائل من الأسئلة لا يزال أكثرها ممتنعًا عن الإجابة النّاجزة في التفكير الغربيّ المعاصر. من أبرز تلك الأسئلة التي أُلقيت في وجه العقلانيّة الصّمّاء: كيف يُمكننا التّيقُّن من امتلاكنا جميعًا للقدرة نفسها على التعقّل وإمكانيّة الوصول معًا إلى حقيقة ثابتة لدى الجميع؟ ما يعني أن لا وجود لعقلانيّةٍ جامعة، أو لمحورٍ استدلاليٍّ مشترك لدى جميع البشر، أو حقيقةٍ موضوعيّةٍ

1- روجر تريغ، هل يحتاج العلم إلى الدّين؟ نقلًا عن موقع .Does Science Need Religion www.Faraday-institute.org راجع فصليّة «الاستغراب» العدد 13، خريف 2018م، ترجمة: هبة ناصر.

تبقى على ثباتها وديمومتها من جيلٍ إلى آخر. وما من شكّ، فعلى الرّغم ممّا أفضت إليه ما بعد الحداثة من تقويضٍ لثوابت النّظام الحداثويّ، وما نجم عن ذلك من فوضى عارمة في عالم الأفكار، فقد أسهمت أيضًا في تقويض الأساس المنطقيّ للعلم الطبيعيّ.

بعض المفكّرين واللّاهوتيّين رحّبوا بما قامت به حركة ما بعد الحداثة حيال ادّعاءات العلم؛ لأنّ هؤلاء اعتقدوا بأنّ ذلك سوف يفتحُ المجال أمام سير عمل الدّين. فإذا لم يستطع العلم ادّعاء الحقيقة، لا يُمكنه استبعاد الدين على أساس أنّه باطل. يأتي هذا الاستنتاج بثمنٍ فادح، حيث لا يُعَدُّ العلم الطبيعيّ عاجزًا فحسب؛ بل لا يُمكن للاعتقاد الدينيّ حينئذ أنّ يدّعي الحقيقة. فإذا انتفى سبب الانشغال بالعلم، ينتفي كذلك سبب الالتزام الدينيّ. وفقًا لهذا الرأي، وهو ما سيذهب إليه المعتدلون من الجانبين اللّاهوتيّ والعلمانيّ في الغرب لجهة النَّظَر إلى العلم والدِّين بوصفهما حقلين إيمانيَّيْن مُختلفين ومستقلّين، لا يُمكن لأيٍّ منهما أن يُهاجم الآخر وعليهما أن يدعا بعضهما كلٌّ لشأنه.

لم يجر التّعامل الفلسفيّ مع الجائحة من جانب السّلطة الـ «ما بعد حداثيّة» في الغرب إلّا بوصفها ظاهرة طبيعيّة تبدأ في الطّبيعة وتضمحلّ في الطّبيعة. ومع أنّ تلك الرّؤية صحيحة انطلاقًا من الفرضيّات الفيزيائيّة والبيولوجيّة إلّا أنّها تفارق المرجعيّة الفلسفيّة للعقلانيّة. فالتفكير العقلانيّ يميل دائمًا إلى الاعتقاد بأنّ المعقول هو الطّبيعيّ، ولا وجود لشيء خارق للطّبيعة، وأقصى ما يُعرف به هو المجهول الّذي قد يصبح يومًا ما معلومًا، ولا مكان في مخطّطه الفكريّ لقوى خارقة، ولا محلّ في عقله للاستسلام الغيبيّ لعقيدة ما، وإذا كانت معرفة ما يبغضه فكر معيّن أشدّ البغض تفيدنا في تحديد معالم هذا الفكر فإنّ أبغض شيء إلى العقلانيّ هو ذلك المزاج الفكريّ الّذي تعبّر عنه عبارة «أؤمن به لأنّه مستحيل»[1]. وتبعًا لهذه الفَرضيّة العقلانيّة إلى إسقاط كلّ ما هو خارق للطّبيعة أو غيبيّ من الكون، وتكفي حصرًا الطبيعيّ، الّذي يؤمن المفكّر العقلانيّ أنّه قابل للفهم، وأنّ السّبيل إلى فهمه في الغالب الأعمّ يتمّ عبر ما سمّي بـ «مناهج الوسائل التي يعرفها البحث العلميّ». ويبدو واضحًا من النّاحية التاريخيّة أنّ نموّ المعارف العلميّة، والقدرة المُتزايدة على

1- كرين برنستون، تشكيل العقل الحديث، ترجمة: شوقي جلال، مراجعة: صدقي خطاب، العدد 82، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، 1984م، ص119.

استخدام المناهج العلميّة، مرتبط ارتباطًا وثيقًا بنموّ الاتّجاه في النَّظَر إلى الكون والكوزمولوجيا العقلانيّة. والحقيقة أنّ أغلب العقلانيّين لهم نظرة كاملة إلى العالم، وأسلوب حياة مرتبط بإيمانهم بالعقل. وكلّ مَنْ يذهب من العلماء إلى أنّ المعارف الصحيحة هي فقط تلك التي نصل إليها عن طريق المنهج العلميّ إمّا أن يكون بالضرورة عقلانيًا أو مُشكّكًا، ولكن من المُهمّ جدًّا أن نتذكّر أنّ العلم والعقلانيّة، وإن كانا قد تداخلا وارتبطا فيما بينهما على مرّ التّاريخ، فإنّهما ليسا شيئًا واحدًا على الإطلاق.

على أيّ حال، لا بُدّ من الاعتراف بأنّ الإسهام الفكريّ الأُوروبيّ الّذي تجلّى في عصر النّهضة وعصر الأنوار وعصر الحداثة رسم للإنسانيّة سبيلًا راقيًا من التدبّر الواعد، غير أنّ رُقيّ ذلك الإسهام الأُوروبيّ عطّلته تعطيلًا جسيمًا عواملُ الانحراف التي أصابت الأنظمة السياسيّة الغربيّة، ولا سيّما خارج أسوار المجتمعات الأُوروبّيّة، وامتحنته امتحانًا قاسيًا ارتداداتُ الفكر الغربيّ العبثيّة الّتي أصابت تلك المجتمعات منذ منتصف القرن العشرين وفي أوائل القرن الحادي والعشرين. وإذا ما نظر المرء في هويّة القوى المؤثّرة في زمن كورونا، ألفى نفسَه محاطًا بحلقتين عظيمتين من سلاسل الأسر والعبوديّة. الحلقة الأولى، تضمّ أربعة بلدان عظمى تؤثّر تأثيرًا فاعلًا ومباشرًا في مسرى الأحداث، وهي الولايات المتّحدة الأميركيّة والصّين والاتّحاد الأوروبّيّ وروسيا، فيما الحلقة الثانية تشتمل على قوى تخطيطيّة إنتاجيّة عابرة للحدود، ألا وهي دوائر الاستخبارات العالميّة، ومنتديات البورصات والنّفوذ المصرفيّ الماليّ، وتجمّع مُصنّعي الدواء ومختبرات الأبحاث العلميّة العلنيّة والمكتومة، ومحافل الالتئامات السرّيّة كالماسونيّة والصهيونيّة ومنتدى المستنيرين (الإيلُّميناتي) ومنتدى المغفَّلين (الأنونيمُس)، وما شاكل ذلك من أخلاط بشريّة تتواصل تواصلًا منفعيًّا ينتهك حدود الدّوَل والدّساتير والنّواميس والشّرائع، وتجمُّع مصانع الأسلحة النّاريّة والضّوئيّة والنوويّة والكيميائيّة والبيولوجيّة، وشركات الإعلام العالميّة الأخطبوطيّة الضّخمة في جميع هيئاتها المقروءة والمسموعة والمرئيّة والإلكترونيّة[1].

البيّن من الوقائع أنّ وباء كورونا دفع بسؤال العلم ونظريّاته إلى الحدود القصوى. وبصرف النَّظَر عمّا إذا كان ذلك جاء اضطرارًا بحكم الضّغط الذي سبّبته الجائحة،

1- مشير عون، الوعي الكورونيّ الطّارئ، فصلية «الاستغراب»، العدد:20، صيف 2020م.

فإنّ التّمييز المنهجيّ يبقى ضروريًّا بين منطق العلم ومنطق العقل. ففيما تدخل أسئلة الوجود الكبرى في اهتمامات العقلانيّ، تتوارى تلك الأسئلة أو قد تصل إلى حدّ التبدّد لدى صاحب النّزعة العلميّة. ربّما هذا هو الفارق الجوهريّ بين المشتغلين في كل من هذين الحقلين. وسواء أخذنا العلم بمعنى نسق المعارف العلميّة المتراكمة (أي المنهج العلميّ) فلن نجد رابطة اعتناء بالميتافيزيقا، أو بـ «ما بعد الطبيعة»، ذلك لأنّه، من حيث هو علم، لا يقدّم إلينا مذهبًا في الكونيّات (كوزمولوجيا)، أو في الوجود في ذاته (الأنطولوجيا)، أو في الغائيّة. العلم، من حيث هو علم لا يحاول الإجابة؛ بل ولا حتى التساؤل عن القضايا الكبرى المتعلّقة بمصير الإنسان، وسبل الرّبّ إزاء الإنسان، أو الصّواب والخطأ والخير والشّرّ؛ بل إنّ بعض العلماء لا يكادون يطرحون أيًّا من تلك الأسئلة الكبرى حتّى من حيث هم أفراد، ويكاد كلّ منهم أن يسترشد في حياته اليوميّة بالعرف والسّلطة؛ أي أنّ بعض العلماء قد يكونون من دون فضول ميتافيزيقيّ شأنهم في هذا شأن كثير من البشر، ولكن ما إن يسأل العالم نفسه أيًّا من تلك الأسئلة الكبرى، ويحاول الإجابة عنها فإنّه يكفُّ بهذا السّلوك عن أن يكون عالمًا؛ بل إنّه يفعل شيئًا آخر مغايرًا لطبيعة عمله بوصفه عالمًا.

لدى المُفكّر العقلانيّ مجموعة كاملة من الإجابات عن القضايا الكبرى، أو أنّه واثق من أنّ الزمن والدأب كفيلان، إذا ما لازم الإنسان صواب التّفكير، بتقديم الإجابات الصحيحة. وعليه، عُدَّت النّزعة العقلانيّة بالصّورة التي ظهرت فيها خلال القرنين السّادس عشر والسّابع عشر في الغرب نسقًا ميتافيزيقيًّا كاملًا؛ بل وأكثر من ذلك، فإنّها كانت وما زالت بالنّسبة إلى قليل من النّاس بوصفها بديلًا للدّين. ونظرًا إلى أنّ النّزعة العقليّة اتّخذت بوضعها هذا صورة مذهب شبه دينيّ، فقد كان من الأفضل وصفها بأسماء محدّدة مثل: المادّيّة والوضعيّة وما شابه ذلك من تسميات. غير أنّ المفارقة هنا أنّ العقلانيّة، على الرّغم من تمايزها في الماهيّة والوظيفة مع العلم، إلّا أنّها أدخلت الأخير بوصفه موضوعًا من مواضيع نشاطها الفكريّ. وضمن ذلك المنحى، جرى ضربٌ من التكييف العقلانيّ للثورة العلميّة، من أهمّ نتائجه تحويل العلم إلى مذهب اجتماعيّ في ما يُعرف بـ «العَلمويّة».

جائحة التّقنية وجناياتها

إلى لحظتنا العالميّة الرّاهنة، نجد أنّ نحوًا من أربعة قرون قد انصرمت على سيادة المذهب العقلانيّ. والآن لنرَ ونحن في لجَّة الجائحة، ما النّتيجة التي ترتَّبت على تلك السّيادة الّتي طال زمانها واستطال..؟

الحاصل أنّ النّزعة العقلانيّة وضعت الغرب بكل منجزاته العلميّة والمعرفيّة تحت سطوة التطوّر التقنيّ وسلطانه. وكان من حصاد ذلك الاستحواذ أن انحكمت الحضارة المعاصرة بعقيدة صمّاء لا ترى إلى الإنسان، ولا إلى الطّبيعة إلّا بوصفهما حقلَ رماية لعقل بات أدنى إلى دابَّة هائمة. ولنا من تراث العقلانيّة الغربيّة ومستحدثها أمثلة شتّى. سوف نأخذ هنا واحدًا من أبرز شواهدها التي تعنينا في جغرافيّتنا العربيّة والإسلاميّة الرّاهنة.

إنّ من أظهر الشّواهد على بهتان الأطروحة العقلانيّة وتهافتها في زمن الجائحة وما قبلها، سيادة المبدأ القائل أنّ غاية العقل العلميّ هو جلب المنافع لأصحاب هذا المبدأ نفسه. ولعلّ ما ذهب إليه خطاب السّلطات الصحّيّة والشركات الاحتكاريّة للأدوية ما يكشف عن عقلانيّة تجرّدت من القيم الأخلاقيّة وحقوق الإنسان. وهنا، لا بُدّ من شرح هذا الإشكال بشيءٍ من التأنّي: في الفكر الاستعماريّ الذرائعيّ يُنظَر إلى كلّ ممكنٍ وواقعيّ بوصفه أمرًا عقلانيًّا. يحصل هذا حتّى لو كان مُقتضى الوصول إلى الهدف الإبادة البيولوجيّة للكائن البشريّ. وتلك هي العقلانيّة الاستعماريّة التي ارتكنت إلى العلوم الطبيعيّة بوصفها معيارًا أوحَدَ لحلّ مشكلات العالم، حيث يتمّ تجريد الذّات الإنسانيّة من كلّ محتوى أخلاقيّ وسياسيّ وجماليّ. وما ذاك إلّا لأنّ المَهمّة الجوهريّة لتلك العلوم اقتصارها على المُلاحظة الحسابيّة «المحضة» والقياس المحض. ذلك بأنّ تحديد «طبيعة الأشياء» وطبيعة المجتمع جرى على نحوٍ يُسوّغ «عقلانيًّا» الاضطهاد والاستغلال.

لم تكن خرافة «الحروب العادلة» التي تحوّلت إلى مقولةٍ سائدةٍ في العقد الأخير من القرن الماضي، إلّا الدّليل البيّن على ذلك الضَّرب من العقلانيّة الجائرة لم تدرك الحداثة بسببٍ من غفلتها ومَيْلها المحموم إلى السّيطرة، أن المعرفة الحقّة والعقلَ الحقَّ يقتضيان السّيطرة على غلواء الحواس، والتحرّر من قهر الغير والسّيطرة عليه. تلك الذهنيّة الإيذائيّة سوف ترِثها اللّيبراليّة الجديدة وتأخذ بأحكامها عن ظهر قلب. المفارقة في «العقلانيّة» بنسختها النيوليبراليّة أنّها حين تُقِرُّ بالقيم

الإنسانيّة بوصفها سبيلًا للعدل والسّلام العالميَّيْن، تعود لتؤكد - وبذريعة العقلانيّة إيّاها - أنّ تلك القيم قابلةٌ لأن تتّخذ مكانتها في أسمى منزلة (أخلاقيًّا وروحيًّا)، ولكنّها لا تُعَدُّ حقائقَ واقعيّة. تلك معادلةٌ أساسيّةٌ من معادلات فلسفة الاستعمار التي بناها العقل البراغماتيّ للحداثة. تقول تلك المعادلة صراحةً: إذا كانت قيم الخير والجمال والسّلام والعدالة غير قابلةٍ للاستنباط من الشروط الأنطولوجيّة أو العلميّة، فمِنْ ثَمَّ، لا مجال بأن نطالب بتحقيقها. فتلك القيم من منظور العقلانيّة العلميّة ليست إلّا مشكلاتٍ تتعلّق بالتفضيل الشخصيّ. ولمّا كانت تلك الأفكار غيرَ علميّةٍ، فإنّها لا تستطيع أن تواجه الواقع القائم إلّا بمعارضةٍ ضعيفةٍ وواهنةٍ. ولذا، تغدو العقلانيّة المنزوعة الأخلاق - بعدما استبدَّ بها جشع الاستيلاء والسَّيطرة - هي التي ستلقي بالعالم المعاصر في مهبّ الجوائح، والأوبئة، والحروب المفتوحة.

يحيل عدد من المُفكّرين في أوروبا وأميركا أسباب تداعيات الجائحة إلى همجيّة الأيديولوجيا النّيوليبراليّة وفلسفتها التّقنيّة... ويرى هؤلاء أنّ ظهور الفيروس كان مرتقبًا منذ مدّة طويلة؛ لأنّه ناتج عن تعديلات طفيفة لوباء السّارس. ومن المعلوم قبل خمسة عشر عامًا، تمّ التغلّب على «السّارس» وحُدّد التسلسل الجينيّ للفيروسات المسؤولة عنه، وتوفّرت اللّقاحات، وكان بإمكان المختبرات أن تعمل في كلّ أنحاء العالم على تطوير الحماية من وباء كورونا المحتمل. إلّا أنّ ذلك لم يحصل، والسّبب يعود إلى أنّ شركات الأدوية سلّمت مصير شعوب الغرب للاستبداد الخاص الّذي لا يخضع للمساءلة العامّة، وفضّلت صناعة كريمات جديدة للجسم، بدلًا من العثور على لقاح يحمي النّاس من الدّمار الشّامل[1].

ذلك الوجه الانتفاعيّ يعود في الأساس إلى استشراء العقل التّقنيّ الذي استطاع أن يتبوّأ عرش العالم لمّا انتصر للعقلانيّة، واتّخذ العلم دربةً له إلى فردوس التّقدّم. غير أنّ الحقيقة هي أنّ الغرب الّذي ابتدأ بتقديس العقل، انتهى إلى تقديس الشّيء الّذي صنعه العقل التّقنيّ، وراح ينفلت من عقاله، وينشر على الملأ كلّه فزعه الأكبر. ليس هناك ما يدعو إلى الاستغراب، إنّ الحداثة انتقلت بلا رويَّة من تقديس العقل إلى تقديس الشّيء الّذي صنعه العقل. وتلك الفَرَضيّة موصولة بالتّساؤل عن حضارة استهلّت رحلتها بعبادة العقل المحض، ثمّ هوت إلى عبادة الفرد، ثمّ لتنتهي إلى عبادة الآلة؟.. مُفكّرو الغرب من الّذين آلَمَهُم المآل وشرعوا

1- نعوم تشومسكي، كيف سيغيّر كورونا العالم، حوار مع قناة (Diem 25)، في: 2-4-2020م.

بنقد الذّات، راحوا يكشفون عن رابط وطيد بين ثلاث صُوَر للإنسان الحديث: صورة الإنسان المُفكّر، وصورة الإنسان الصَّانع، وصورة الإنسان الاقتصاديّ.

يحضرني في هذا الصّدد ما يقوله المُفكّر الفرنسيّ إدغار موران في سياق مطالعاته النّقديّة لما سمّاه سلوكيّات البربريّة الأوروبيّة، أنّ ترياق «الهذيان» و«الحمق» يمكثان في أعماق العقل الحديث. ذلك العقل الّذي مضى إلى عقلنة ما هو غير منطقيّ وغير أخلاقيّ وغير معقول، آلَ به الحال إلى اختراع ضربٍ من العقلنة لتخدم الهوى، وتقود إلى الهذيان. من هنا، يمكن القول: إنّ ما آلَتْ إليه الحداثة التّقنيّة في هذا السياق لا تبدو إلّا بوصفها محصولًا لعقلٍ استبدّ به الغلوّ، فانزاح عن غايته وانحدر صوب التّشييء المُروّع للإنسانيّة المعاصرة. وهذا هو بالضبط ما أوْقَدَ حماسة هايدغر إلى نقد ما جَنَتْهُ التّقنية على الإنسان الحديث.

في وصيّته الفلسفيّة التي نشرت بعد وفاته يتحدّث الفيلسوف الألمانيّ إدموند هوسّرل (1859م- 1938م) عن أزمة العلوم الأوروبيّة، ويرى أنّها أزمةٌ ناشئةٌ من التّناقض بين علوم الطّبيعة وضرورات الحياة الإنسانيّة. فالعلم الحديث لا يستطيع أن يشفي الوعي الأوروبيّ؛ إذ هو سببٌ من أسباب الأزمة الأوروبيّة، يجرّ في تطبيقاته التقنيّة على أوروبا أبشع أصناف البربريّة[1]. في هذا الكتاب الوصيّة يتأمّل هوسّرل في الإنسان، وقد تحوَّل ذاتًا تتفكّر في العالم، وموضوعًا قابلًا للأخذ والتّحليل والتّشريح الاختباريّ. ولقد فقدت أوروبا بعضًا من إنسيّتها الفكريّة ومن رُقيّها الإنسانيّ حين أهملت الذّاتَ الإنسانيّة فاعلًا أساسيًّا في التاريخ، وحوَّلتها إلى موضوعٍ للاختبار العشوائيّ، ولا سيّما في مختبرات العلوم والاقتصاد والسّياسة. أمّا الحقيقةُ الأصليّة القبْليّة الكونيّة الشّاملة، فهي أنّ الذّات الإنسانيّة ترتبط ارتباطًا وثيقًا بعالم الحياة. غير أنّ المسكونة اضطربت في زمن ما بعد الحداثة؛ لأنّ المنظومات السّياسيّة والأيديولوجيّات القوميّة والدينيّة سلخت الذات عن الحياة، فجمّدتها في هيئة واحدة خانقة، عنيتُ بها هيئة الخضوع العَبديّ والاستهلاك المُميت.

لا بدّ هنا من التذكير بما كان يردّده هايدغر في استقصاءاته الأنطولوجيّة التي

1- Husserl, Die Krisis der europäischen Wissenschaften und die Tranzscendentale Phänomenologie. Eine Einleitung in die phänomenologische Philosophie, hrsg. von Walter Biemel, Husserliana (Gesammelte Werke), Band VI, Haag, Martinus Nijhoff, 1976.

تناول فيها مصير الإنسيّة الأُوروبّيّة: «أُوروبّا اليوم هي مريضة، [...] والعصر الحاليّ آخذٌ في الانحدار»[1]. وفي محاورته المفكّر الياباني، أعلن أنّ الزمن هو زمن الأَوربة؛ أي زمن خضوع البشريّة للذهنيّة الأُوروبيّة التي أغفلت حقيقة الكينونة العميقة. مثل الظاهرة هذه في «أَوربة الإنسان والأرض تُغير على كلّ ما هو جوهريّ وتقضمه في جذوره. كلُّ الينابيع تبدو محكومةً بالنّضوب». في عرف هايدغر أنّ نسيان الكينونة هو أصل البلاء في تشويه عالم الحياة وعالم الإنسان على حدّ سواء. لذلك، يجب على الغرب، ولا سيّما أُوروبّا، إنقاذ الجوهر؛ أي استخلاص المعنى السّحيق الّذي يليق بالأشياء وبالكائنات وبالموجودات حتّى ينعتق الإنسان من سطوة التّقنية الجارفة، وتستعيد الحياة جريانها العفويّ المنعش[2].

الجائحة في تداعياتها الأميركيّة

فيما أقامت جائحة كورونا الحدّ على العولمة اللّيبراليّة وزلزلت أركانها، راحت تؤسّس لعولمة من نوع جديد. ولكن أيّ نوع من العولمة؟ هذا هو السّؤال الّذي أخذ يحتلّ مكانته في مواقع التفكير على نطاق العالم كلّه. ومع أنّ العولمة بصيغتها النيوليبراليّة كانت بدأت تتلاشى، فإنّ جائحة كورونا قد حكمت عليها بالسّقوط المبرم. اليوم، تبدو البشريّة أمام أفق مفتوح على تغيّر هائل تجد نفسها مجبورة عليه. وهذا ليس بأمر غريب في قوانين التاريخ، حيث نجد في أحيان غير منتظرة أنّ الطّبيعة الصّامتة، أو الخفيّة تتدخّل في المصير البشريّ، وتفرض على أهل الأرض نمط حياة ما كان ليخطر في بال أحد منهم.

يكشف المثال الأميركيّ مع الجائحة، عن حجم التّهافت في المواجهات المصيريّة للعالم؛ إذ غالبًا ما كانت وما زالت الولايات المتّحدة تنصّب نفسها بوصفها قائدًا عالميًّا. ولكن كوفيد 19 راح ينشر الفوضى في أرجائها، ويلحق الدّمار بلا هوادة في بِنْيتها المجتمعيّة. يُشار في هذا المجال إلى أنّ 43% من الأشخاص يعيشون من دون أيّ نوع من التأمين الصحّيّ، ولا يستفيدون من الحدّ الأدنى من برامج التّغطية الصحّيّة (Medicare أو Medicaid) الحكوميّة. ولا شكّ أنّ حالة الرفاهيّة الاجتماعيّة الضّعيفة في البلاد والاستجابة السياسيّة غير

1- Heidegger, Was heißt Denken?, GA 8, Frankfurt, Klostermann, 2002, S. 12.

2- مشير عون، الوعي الكورونيّ الطّارئ، مصدر سبقت الإشارة إليه.

المنتظمة، أدّيا إلى تفاقم الأزمة الحاليّة. وحاصل الأمر أنّ الوقت الّذي وُصفت أميركا ذات مرّة بأنّها «منارة» القيم يوشك على النّهاية المحتومة. وهذا ما سبق أن أكّده العالم الفرنسيّ «ألكسيس دي توكفيل» منذ عقود طويلة، حيث رأى أنّ الأزمة تلقي بظلالها على ما كان يتطوّر منذ مرحلةٍ طويلة. وهو أنّ الإمبراطوريّة الأميركيّة آخذة في الانحدار[1].

يبدو من الواضح أنّه في السّنوات الأخيرة وحتى قبل بداية أزمة كوفيد 19 في الولايات المتّحدة، اعتقد جزءٌ كبيرٌ من الطبقة الوسطى أنّ هناك مستوياتٍ غير مقبولة من عدم المساواة، وأنّه من الضروريّ التّحرّك نحو دولة الرفاهية ونظام أكثر إنصافًا للحماية الاجتماعيّة. وهذا يتطلّب عقدًا اجتماعيًّا جديدًا للاستجابة لجزء كبير من المواطنين الّذين يشعرون بأنّهم مهجورون وغير محميّين في مواجهة الأزمة الكارثيّة التي سبّبها كوفيد 19. ومن دون أيّ شك، أدّت استجابات الإدارة الحاليّة، مضافًا إلى نقاط الضّعف الاجتماعيّة والصحّيّة بأساليبها الحاليّة، إلى العديد من الخسائر البشريّة والماديّة، كما أدّت إلى التشكيك في القيادة العالميّة للولايات المتّحدة. في السياق نفسه، يرى عالم اللّسانيّات الأميركيّ نعوم تشومسكي أنّ العالم بعد أزمة جائحة كورونا المُستجدّ سوف يشهد ظهور دول أكثر استبداديّة، مثلما يكشف عن عمق العيوب في النّظام العالميّ الحالي[2]. ورأى أنّ أزمة الحضارة الغربيّة في هذه المرحلة تبدو مدمّرة، فقوّة الولايات المتّحدة ساحقة حتى الآن، وإذا فرضت عقوبات على إيران، أو كوبا فالجميع يتبعها بذلك وحتّى بما في ذلك الدول الأوروبيّة، ولكن، على سبيل المثال، من السّخرية أن نجد كوبا تعرض المساعدة على أوروبا في مواجهة فيروس كورونا. ودعا تشومسكي إلى ضرورة التّعامل مع أزمة فيروس كورونا بالخطاب التعبويّ نفسه في زمن الحرب، مشيرًا بذلك إلى تعامل الولايات المتّحدة مع الحرب العالميّة الثانية، فعلى الرّغم من أنّها قادت البلاد إلى دين كبير، إلّا أنّها ضاعفت التصنيع الأميركيّ ودفعت بالنموّ لأقصى درجة، ونحن بحاجة إلى مثل تلك العقليّة للتغلّب على الأزمة على المدى القصير، والّذي تتمكّن فيه الدول الغنيّة من مساعدة الدول الفقيرة. يضيف

1- غوستاف بالوماريس ليرما، كوفيد 19 كمؤشر على أفول العصر الأميركيّ، ترجمة: فؤاد حيدر أحمد، فصلية الإستغراب، العدد 20، صيف 2020م.

2- نعوم تشومسكي، كيف سيغيّر كورونا العالم؟، مصدر سبق ذكره.

تشومسكي أنّ الأزمة الحاليّة أثبتت فشل سياسيات السوق، والتي فاقمت المشاكل الاجتماعيّة والاقتصاديّة؛ إذ إنّ ما عرقل جهود مواجهة مثل هكذا وباء بعد كل تلك السّنوات من التقدّم هو «الطاعون النيوليبراليّ»، وخاصّة أنّ المعلومات دائمًا ما تكون متوفّرة، ولكن الانتباه لها وسط هذا النّظام لا يكون إلّا إذا جاء من خلفها منفعة[1].

بالنّظر إلى كيفيّة استجابة حكومة الولايات المتّحدة لكوفيد 19، لم يعد من الممكن التسليم بهذا النّمط. فالتناقض الكبير للقوّة العالميّة السّائدة هو أنّه لا يمكن لأيّ لاعب أن يتحكّم في كلّ شيء في مواجهة الأزمة. ومِنْ ثَمَّ، لا تزال الولايات المتّحدة غير قادرة على تنسيق استجابة مشتركة للوباء، ولا يمكن أن تكون منقذ الأبرياء - منقذ العالم - في أثناء الأزمة. في حين أنّ الرئيس ترامب وإدارته يثبتون أنّهم غير قادرين على الاستجابة بفعاليّة للأزمة، فتخسر الولايات المتّحدة تدريجيًّا مكانتها بوصفها زعيمًا عالميًّا يضع جدول الأعمال. ولذا، تبدو السّمة الأساسيّة للولايات المتّحدة في هذه الحقبة الجديدة هي ممارسة القيادة المتقطّعة والواهنة للعالم، كما يتّضح من توصيات ترامب للتّخفيف من جائحة كوفيد 19. وعبر مجمل الأزمات، كانت استجابات السّياسة الخارجيّة الأميركيّة الأخيرة سلبيّة فوضويّة وتتّصف بردود الأفعال. فكان يتمّ اتّخاذ القرارات على أساس كلّ حالة على حِدة، وتفتقر إلى إمكانيّة تتبّعها وتحديد موضوعها. ومثل هذا السلوك يعكس المعضلة التي تواجه الدبلوماسيّة الأميركيّة الحديثة: وهو إمّا العودة إلى المُثُل والقيم التقليديّة، أو وضع مبادئ جديدة لعالم يتميّز بالتعدّديّة في مراكز القوى.

لقد أثبتت الولايات المتّحدة -حسب جمع وازن من الخبراء- عدم قدرتها على مواجهة سلسلة من «الحروب» العالميّة الجديدة. من حربها الملتبسة على الإرهاب، إلى المواجهة غير المتكافئة مع فيروس كورونا المُستجدّ. وكلا العدوّين كانا قادرين على ضرب الأراضي الأميركيّة، وكشفا عن نقاط الضّعف الكبيرة في بِنْية المجتمع الأميركيّ. في مواجهة تلك التحدّيات الجديدة لم تتمكّن الحكومة الأميركيّة من التكيّف مع غزو الجائحة؛ بل هي لجأت بدلًا من ذلك إلى الاستجابات القديمة، وكان كلّ منها أكثر عجْزًا للتحدّيات الجديدة التي تواجهها. أمّا في حالة العدوّ الآخر، الإرهاب الدّوليّ، فكان المزيد من الانخراط في صراعات جديدة وخصوصًا

1- نعوم تشومسكي، كيف سيغيّر كورونا العالم، مصدر سبق ذكره.

في ساحات أفغانستان والعراق وليبيا، فضلًا عن التورُّط في سوريا الّتي تشهد أفظع مأساة إنسانيّة منذ الحرب العالميّة الثانية[1].

الجائحة وسؤال القيم

على الرّغم من سماكة الجدار الإسمنتيّ الّذي أنشأته الحداثة العلمانيّة في بِنْية المجتمع الغربيّ، ظلّ سؤال الدّين حيًّا وعصيًّا على الاندثار. وبقطع النّظَر عن التّعبيرات التي يظهر من خلالها هذا السّؤال على مستوى مؤسّسات الدّولة، إلّا أنّه بقي حاضرًا في المجال العام وعلى المستوى الفرديّ. وليس من شكّ، فإنّ أيّ استطلاعات ومتابعات حول هذه القضيّة وتفاعلاتها في زمن كوفيد 19 قد تسفر عن إرهاصات لعودة سؤال الإيمان الدينيّ داخل المجتمعات الغربيّة. وهو ما أشار إليه الفيلسوف الكنديّ تشارلز تايلز عندما ذكر أنّ أيّ تغيّر في النَّظْرة إلى المجتمع والعالم والمقدّس، في ظلّ جائحة كورونا سوف يُسهم في إعادة تشكيل أولويّات الحياة والخيارات الأخلاقيّة لدى الفرد الأوروبيّ الحديث؛ فقد أصبح العمل الاقتصاديّ برأيه يضاهي العمل الدينيّ[2].

لمّا كان السّؤال عن المصير البشريّ من أبرز الأسئلة وأشدّها وقعًا على الإنسان المعاصر، فإنّ هذا السّؤال بات مع ظهور الجائحة أكثر إلحاحًا. ومعه ستعود أطروحة التّناقض بين العلم والدّين لتسري بقوّة في مُجمل الحقول المعرفيّة للغرب الحديث. فهذه الأطروحة غالبًا ما تبدأ من الميتافيزيقا، ثمّ تتمدّد في أعماق المنهج الحاكم على مختلف العلوم الإنسانيّة. فعلى مرِّ الحقب، ظلّ يُرى إلى ثنائيّة العلم والدّين ضمن معادلةٍ متماديةٍ من التّناظر المستحيل. وأمّا التحوّلات البَعْديّة التي جرت في مجالات اللّاهوت والفلسفة والعلوم الاجتماعيّة والإنسانيّة، فلم تُنهِ الاحتدام؛ بل ستفضي إلى تعميقه بوسائط ومناهج مستحدثة[3].

أنّى كانت الاحتمالات حول الاتّجاه الّذي سيسلكه السّجال الفلسفيّ والسّوسيولوجيّ بعد اضمحلال الجائحة، فسيكون علينا - لدواعٍ منهجيّةٍ - حصر

1- غوستاف بالوماريس ليرما، مصدر سبق ذكره.

2- تايلر تشارلز، المتخيّلات الاجتماعيّة الحديثة، ص82.

3- محمود حيدر، العلم العائد إلى وحيه، مجلة الاستغراب، العدد:13، خريف 2018م.

المقاربة بالسّؤال الأساس الآتي: إلى أيّ حدٍّ ستتّجه العلوم الإنسانيّة الغربيّة نحو الإقرار بسَرَيَان الإرادة الإلهيّة في الكون سعيًا إلى تحصيل معرفة أكثر عمقًا بأسرار هذا الكون وتحوّلاته؟

هذا السّؤال يستبطن استفهامًا مركبًا: من ناحيةٍ هو استفهام إبستيمولوجيّ (معرفيّ) يتوجّه حصرًا إلى العلم آملًا منه الإجابة، ومن ناحيةٍ ثانيةٍ هو سؤالٌ أنطولوجيٌّ يدور مدار الفلسفة وهمومها الميتافيزيقيّة.

في كلّ حال، ينبغي لنا النَّظَر إلى السّؤال بجناحيه بوصفه واحدًا من أهمّ مفاتيح السّجال حول منزلة الدين في العقل العلميّ الحديث. ولمَّا كان التّحقُّق من القضيّة متعلّقًا بالمنهج، وَجَبَ الرّجوع إلى ماهيّة نظريّة المعرفة التي أخذت بها ميتافيزيقا الحداثة من أجل التعرّف إلى تلك القضيّة ومشكلاتها[1].

بحلول القرن السّابع عشر، سيظهر لنا كيف ستبدأ رحلة معرفيّة جديدة في أوروبا قوامها هيمنة العلم وكشوفات العقل. سيظهر ذلك بقوّةٍ مع كتاب «تقدّم التعلّم» (1605م) لفرانسيس بيكون (1561م - 1626م) الّذي سيؤكّد أنّ كلّ حقيقةٍ يجب إخضاعها للنّقد الصّارم عبر العلم التجريبيّ حتّى تلك المتعلّقة بأكثر الاعتقادات الدينيّة قداسة.

تلك كانت لحظةٌ مفصليّةٌ في التّنظير الغربيّ للعَلمويّة سوف تؤسّس لما يمكن وصفه فصلًا وظيفيًّا بين الله والعالم. وكان ذلك في الحقيقة ضربًا من علمنةٍ تعترف بالخالق وتعطّل -في الوقت نفسه- تأثير ذلك الاعتراف على الاجتماع البشريّ.

مثل تلك الطريقة نجدها في فلسفة ديكارت الّذي كان قادرًا على التكلّم بلغةٍ عقلانيّة. لكنّه وهو الكاثوليكيّ الورع، أراد أن يقنع نفسه بوجود خالق للكون مع رفضه العودة إلى معتقدات الكنيسة. ورأى أنّ الشيء الوحيد الّذي يمكننا التأكّد منه هو تجربة الشكّ العقليّ في إطار بدهيّته المعروفة «أنا أفكّر إذن أنا موجود».

بالتزامن مع ديكارت، اعتقد الفيلسوف البريطانيّ توماس هوبس - وربّما لتأثّره بمنبته التّوراتيّ- أنّ العالم المادّيّ خالٍ من الإلهيّ، وأنّ الله قد كشف ذاته في فجر التاريخ البشريّ، وسوف يكشف نفسه في نهايته. وحتّى ذلك الوقت -يقول هوبس- علينا الاستمرار في العيش من دونه، وكأنّنا ننتظر في الظلام.

1- محمود حيدر، العلم العائد إلى وحيه، مجلة الاستغراب، مصدر سبق ذكره.

أمّا جون لوك (1632م - 1704م) الّذي كان أوّل الفلاسفة من الّذين أدخلوا التّنوير الفلسفيّ في القرن الثامن عشر، فلسوف يُدخل العلمنة إلى الحيّز السّياسيّ الاجتماعيّ. فكان عليه أن يسبِّلها كفلسفةٍ وعقيدةٍ في حركة الواقع، فمن أجل الوصول إلى دين صحيح- حسب لوك- ينبغي للدّولة أن تتسامح تجاه جميع أشكال الاعتقاد، ويجب أن تنشغل بالإدارة العلميّة وحكم المجتمع فقط. وينبغي للدّولة أن تكون منفصلةً عن الكنيسة وألّا يتدخّل أيٌّ منهما في شؤون الآخر. بذلك، سيكون النّاس لأوّل مرّةٍ في التّاريخ البشريّ أحرارًا. ومِنْ ثَمَّ، قادرين على إدراك الحقيقة.

مع وفود العلم الحديث، فرضت الرياضيات - وليس الميتافيزيقا- نفسها بوصفها الأسلوب المناسب لتشكيل فهم علميّ وتجريبيّ للعالم. لم يستمدّ العلم الجديد في تطوّره النّاضج قوانينه من حسّاباتٍ ميتافيزيقيّةٍ، ولم يُقدّم نفسه بوصفه تابعًا جوهريًّا، أو بوصفه طالبًا للاندماج والاكتمال ضمن منظومة الميتافيزيقا واللّاهوت الطّبيعيّ. ولقد مضى بعض الوقت قبل ظهور الطّابع الإلحاديّ للمفهوم الجديد للعالم والمنهج العلميّ الذي يُسنده. بالتدريج، أصبحت أيُّ إشارةٍ إلى الله في التّفسير العلميّ للعالم بعيدةً وعرضيّةً بشكلٍ متزايد. ومع الوقت، أصبح «الله» خارجًا عن الموضوع حتّى حين يجري الحديث عن مصدر النّظام الشمسيّ وصيانته، وأصبح ضائعًا في تخمينات نظريّةٍ مُبهمةٍ حول أصل السّديم السّابق للوجود الشمسيّ. كما أضحى التّفسير الطّبيعيّ الحصريّ لكلّ الظواهر المادّيّة هو محور الاهتمام المُسيطر. في الحِقب المتأخّرة للحداثة (القرنان التاسع عشر والعشرين) أخذ الانفصال القطعيّ بين العلم والدين مداه الفعليّ. ومع ذلك الانفصال، توسّعت البيئات المتأثّرة بالنّظرة الكونيّة العلميّة الجديدة على نحوٍ لم تعد تقبل فيه الإيمان الدّينيّ. ذلك بأنّ المنهجيّة الإلحاديّة لمنظور العلم المعاصر قامت ببساطةٍ على إقصاء السّؤال عن وجود الله. تلقاء ذلك، ولّدت إطارًا ذهنيًّا يميل نحو تعميم لا مبالاتها المنهجيّة تجاه ما هو إلهيّ، وتحويله إلى نزعةٍ إنسانيّةٍ علميّةٍ مُطلقة.

في حقبٍ تاليةٍ، سيشهد الجدل الفلسفيّ على تساؤلاتٍ غير مسبوقةٍ طاولت الأُسُس الأنطولوجيّة والمعرفيّة التي قامت عليها ميتافيزيقا العقل المحض. من بين أبرز تلك التّساؤلات ولادة بيئةٍ فلسفيّةٍ لاهوتيّةٍ قصدت إثبات التّكامل بين حقائق الإيمان والحقائق العلميّة. لعلّ من أظهر الفرضيّات المطروحة القول بعدم وجود صراعٍ بين الإيمان في طبيعته الحقيقيّة، والعقل العمليّ في طبيعته الحقيقيّة.

نشير هنا إلى ما ذهب إليه الفيلسوف الألمانيّ لايبنتز في كتابه المعروف «مقالة في الميتافيزيقا» من أنّ تعريفه لله يختلف جوهريًّا عن تعريف الفلاسفة المحدثين، أمثال: ديكارت وسبينوزا. فقد صرَّح بأنّه أبعد ما يكون عن رأي مَن يزعمون أنّه ليس هناك قواعد خير وكمال في طبيعة الأشياء أو في أفكار الله عنها، وأنّ أعمال الله ليست خيّرة إلّا من جهة العلّة الصّوريّة [المُتمثّلة] في أنّ الله قد قام بها. فالله - كما يقول - كائنٌ ضروريٌّ، وملكة فهمه مصدر الجواهر وإرادته أصل الموجودات، وهو التّناغم الأسمى وعلّة الأشياء القصوى...

بين القرنين التاسع عشر والعشرين ازدهرت مناخات الحداثة البَعديّة بمساع فكريّةٍ مفارقة لما دأبت عليه العقلانيّة الكلاسيكيّة ولا سيّما لجهة الإهمال المُتعمَّدً لسؤال الإيمان. لنا أن نذكر، على سبيل المثال لا الحصر، مطارحات بول تيليتش (Paul Tillich 1886م - 1965م)[1] الفيلسوف واللّاهوتيّ الألمانيّ، ركّزت تلك المطارحات بصفةٍ خاصّةٍ على ضبط طريقة ارتباط المسيحيّة بالتراث العلمانيّ وتحديدها. ومع أنّه كان بروتستانتيًّا فإنّه لم يوفّر البروتستانتيّة من النّقد. لقد سعى إلى تظهير منهجٍ جديدٍ يقيم توازنًا دقيقًا وإيجابيًّا بين الإيمان والعلم. ودعا إلى إجراء تحوّلٍ عميقٍ يحدُّ من النّزعة الأصوليّة للمذهب البروتستانتيّ، ولا يؤدّي - في الوقت نفسه- إلى استظهار شكلٍ جديدٍ من العلمانيّة.

رأى تيليتش أنّ العلم يحاول أن يصف البِنى والعلاقات في العالم ويُفسّرها، بقدر ما يمكن التحقّق منها تجريبيًّا وحسابها كمّيًّا. ذلك بأنّ حقيقة كلّ حكم علميّ برأيه، هي وصف القوانين البنيويّة التي تحدّد الواقع، ومِنْ ثَمَّ، التحقّقً من هذا الوصف عن طريق التكرار التجريبيّ. ثم إنّ كلّ حقيقةٍ علميّةٍ هي أوّليّة وعرضة للتّغيّرات في الإمساك بالواقع، وفي التعبير عنه تعبيرًا كافيًا أيضًا. وما ذاك إلّا لأنّ الحقيقة العلميّة وحقيقة الإيمان لا تنتميان إلى بعد المعنى نفسه. إذا فُهِمَ ذلك - كما يقرّر تيليتش- ظهرت الصّراعات السّابقة بين الإيمان والعلم في ضوءٍ مختلفٍ تمامًا. فالصّراع في الحقيقة ليس بين الإيمان والعلم؛ بل بين إيمانٍ وعلمٍ لا يعي كلاهما بُعده الصحيح. كذلك، لا يمكن أن يصطرع العلم إلّا مع العلمً، ولا يحتدم الإيمان إلّا مع الإيمان؛ إذ لا يُمكن للعلم أن يبقى علمًا

1- بول تيليتش، بواعث الإيمان، ترجمة: سعيد الغانمي، منشورات الجمل،كولونيا، ألمانيا- بغداد- العراق، 2007م، ص 94.

حيـن يصطـرع مـع الإيمـان. ويصـحّ هـذا أيضًـا على دوائـر البحـث العلمـيّ الأخـرى كالأحيـاء وعلـم النّفـس. فلـم يكـن الصّـراع الشـهير بيـن نظريّـة التطـوّر ولاهـوت بعـض الطّوائـف المسـيحيّة صراعًـا بيـن العلـم والإيمـان؛ بـل صراعًـا بيـن علـم يُجـرّد إيمـان الإنسـان مـن إنسـانيّته وإيمـان شـوّه التأويـل الحرفـيّ للكتـاب المقـدّس تعبيراتـه. ومـن الواضـح أنّ اللّاهـوت الّـذي يفسّـر قصّـة الخليقـة التوراتيّـة كونهـا وصفًـا علميًّـا حـدث فـي الزمـان يتعـارض مـع العمـل العلمـيّ المسـيطر عليـه منهجيًّـا، ونظريّـة التطـوّر الّتـي تفسّـر انحـدار الإنسـان مـن أشـكال حيـاةٍ أقـدم بطريقـةٍ تزيـل الاختـلاف اللّامتناهـي النّوعـيّ بيـن الإنسـان والحيـوان هـي إيمـان وليسـت علمًـا[1].

هـذا المسـتوى مـن النّقـاش، وإن كان لا يـزال منحصـرًا فـي بيئـات محـدّدة، فإنّـه يكشـف عـن وعـود بانعطافـات كبـرى فـي بِنْيـة العقـل الغربـيّ حيـال العلاقـة بيـن الإيمـان الدّينـيّ، والتّطـوّرات العلميّـة المعاصـرة.

إذا كان الإنسـان لا يسـتطيع العيـش إلّا فـي عالـم ذي معنـى، فالإنسـان المُتديّن، على وجـه الخصـوص، هـو الأكثـر توقًـا إلـى العيـش فـي محاريـب القدسـيّ، أو إلـى الهجـرة نحوهـا بـلا كلـل. ومـا ذاك إلّا لأنّ هـذا العالـم المُتسـامي، الـذي يسـتمدّ جاذبيّتـه مـن الغيـب، هـو بالنسـبة إلـى المُتديّـن عالمـه الواقعـيّ والحقيقـيّ. وهـو الـذي يمنحـه الأمـل بالآتـي، وبالسّـعادة التـي ينتظرهـا وإن لـم تأتِـه بعـد. ولأنّ المُتديّـن لا يجـد نفسـه إلّا فـي محـلّ ممتلـئ بجـلال المُقـدّس وجمالـه، فمـن أجـل أن يفتتـح بتلـك الإقامـة «البرزخيّـة» سـبيلًا إلـى السّـكن فـي عالـم الألوهيّـة الفائـض باللّطـف والأمـن ولـذّة القُـرْب؛ أي أنّـه يرجـو الخاتمـة فـي المـكان الأعلـى طُهْـرًا وقداسـةً، مثلمـا كان مـن قبـل كائنًـا طهرانيًّـا فـي علـم اللـه وحضرتـه المُقدّسـة[2].

سـيأتي مـن فضـاء الغـرب نفسـه مَـنْ يجيـب أنّ الإيمـان لـو كان نقيضًـا للعقـل لـكان يميـل إلـى نـزع الصّفـة الإنسـانيّة عـن الإنسـان. فالإيمـان الـذي يدمّـر العقـل يدمّـر فـي المقابـل إنسـانيّة الإنسـان؛ إذ لا يقـدر سـوى كائـن يمتلـك بِنْيـة العقـل علـى أن يكـون لديه همًّـا أقصـى؛ أي أن يكـون شـغوفًا باللـه والإنسـان فـي آن، وذلـك إلـى الدرجـة الّتـي يـؤوّل بـه هـذا الشـغف إلـى تخطّـي الثّنائيّـة السّـلبيّة التـي تصنـع القطيعـة بيـن طرفيهـا. وحـدُه

1- بول تيليتش، بواعث الإيمان، مصدر سبق ذكره.

2- Eliade La Nostalgie des origins: Méthodologie et histoire des religions, ed Gallimard 1971. P 7.

من يمتلك ملكة «العقل الخلّاق»؛ أي العقل الجامع بين الإيمان بالله والإيمان بالإنسانيّة هو الذي يفلح بفتح الباب العالي على الوصل بين الواقع الفيزيائيّ للإنسان وحضور المقدّس في حياته. وما نعنيه بالعقل الخلّاق هو العقل الذي يشكّل البِنْية المعنويّة للذّهن والواقع، لا العقل بوصفه أداة تقنيّة بحتة. وبهذا المعنى يصير العقل شرطًا تأسيسيًّا للإيمان: ذلك لأنّ الإيمان هو الفعل الذي يصل به العقل في نشوته الانجذابيّة إلى ما وراء ذاته؛ أي إلى ما بعد أنانيّته التي يتجاوزها بالإيثار والعطاء والجُود والغيريّة. بتوضيح آخر، إنّ عقل الإنسان مُتناهٍ ومحدود، ويتحرّك داخل علاقات مُتناهية ومحدّدة حين يهتمّ بالعالم وبالإنسان نفسه. ولجميع الفعاليّات الثقافيّة التي يتلقّى فيها الإنسان عالمه تلك الخاصّيّة في التّناهي والمحدوديّة. لكن العقل ليس مقيّدًا بتناهيه؛ بل هو يعيه، وبهذا الوعي يرتفع فوقه وعندها يجرّب الإنسان انتماءً إلى اللّامُتناهي الذي هو مع ذلك ليس جزءًا منه ولا يقع في متناوله، ولكن لا بُدّ له من الاستحواذ عليه. وحين يستحوذ على الإنسان يصير بالنّسبة إليه همًّا لا متناهيًا؛ أي مقدّسًا ونبيلًا. وحين يكون العقل - بتلك الضَّرورة - مسلّمة للإيمان، يكون بهذا المعنى تحقّقًا للعقل. ومقام الإيمان بوصفه حالة همّ أقصى هو نفسه مقام العقل في طور نشوته الانجذابيّة. والنّتيجة أن لا تناقض بين طبيعة الإيمان وطبيعة العقل؛ بل يقع كلٌّ منهما في داخل الآخر[1].

من البَيّن أنّ الحداثة بنسختها النيوليبراليّة عندما استشعرت مأزقها الأصليّ؛ أي البحث الشاقّ عن بَدْءٍ جديد، راحت تحثُّ السَّير نحو انعطافة تمنحها القدرة على ترميم صدوعها؛ بهدف إعادة تشكيل العالم الجديد طبقًا لأغراضها. وهكذا، سنجد كيف جرى تسييل أخبار الجائحة، وتوظيف المعلومات بشأنها عبر الميديا التي تسيطر عليها الشركات الكبرى. فقد ألقت تلك الاحتكارات بجميع أثقالها داخل شبكة عنكبوتيّة من الأنباء والمعلومات والصّور والرموز، وحوَّلتها إلى منظومة للتحكّم والسَّيطرة. فلقد استعملت النّيوليبراليّة منظومتها المستحدثة بغلوّ صارخ، من أجل أن تهيمن على العقول والمشاعر. وليس انتشار المعامل الجرثوميّة والبيولوجيّة فضلًا عن النّوويّة، سوى التعبير الصّريح عن الكون المفتوح على الجوائح الظاهرة والخفيّة. فلو حَسِبَت حكومات الحداثة ما ستؤول إليه أحوالها لحظة انفجار ثورة الاتّصالات، لانعطفت عن مسارها واجْتَنَبت سوء الخاتمة. وبمحض إرادتها أطلقت

1- بول تيليتش، بواعث الإيمان، مصدر سبقت الإشارة إليه، ص 90.

الحداثة الفائضة عن طريق الميديا كمًّا ضخمًا ممّا اختزنته على مدى قرون من قيم ومعارف وأسرار. لقد أمست التلفزة الكونيّة - على سبيل المثال - معادلاً تكنولوجيًّا للأيديولوجيّات اللّيبراليّة فقد باتت أشبه بتقنية أسطوريّة تستند إلى جماهير عريضة، تتكاثر كلّما تطوّر سلطانها المعنويّ.

لقد بدأت الحداثة الغربيّة بوصفها تحوّلًا انعطافيًّا انطلق مع هيمنة العقل. فقد طَمَحت من خلال ذلك التّحوّل إلى استيعاب شامل لما يُزعم بأنّه «اللّامعنى»؛ أي لكلّ ما يختزنه وعاء الغرب من قيم واعتقادات لا تقع تحت عينه الاستدلاليّة واختباراته التّكنولوجيّة. حتّى إذا جاءت التّحوّلات بدت صورة الحداثة شديدة التّداخل والمفارقة: من النّاحية النظريّة كانت الغاية من مشاريع التحرّر أن يكون الإنسان هو غاية تاريخه لا مجرّد وسيلة له، أمّا من النّاحية الإجرائيّة فقد حصل ما يخالف هذا المدَّعى. فقد انعطفت حركة التّحديث بلا هوادة نحو زمن مشحون بعنف الهويّات الأيديولوجيّة. الشّاهد الأكثر إيلامًا في انعطاف الحداثة بدأ في القرن التاسع عشر الذي افتتحته الثورة الفرنسيّة في العام (1789م- 1799م) مرورًا بمأساة الحربين العالميّتين: الأولى والثانية، في مُستهلّ القرن العشرين، آنذاك بلغت قيم التّنوير نهايتها المحتومة.

لقد تميّز ذلك القرن باستشراء الشموليّات الأيديولوجيّة التي ستُبَدِّد جلّ ما أتى به فلاسفة التّنوير، ثمّ توغّلت في أرض الغرب لتحيلها إلى مسرح يشهد على فجيعته المرعبة. فالعقل الذي افتتح مساره بإعلان سيادته على الكون، ما لبث أن وقع فريسة العنف القهريّ؛ لكي يسيطر على كلّ شيء. كان العقل الأوروبيّ الصناعيّ في تلك الحقبة مهووسًا بمصنوعه حدّ التّطيُّر؛ ما حدا باللّاهوتيّ الإنجيليّ ديتريش بونهوفر الّذي قضى ضحيّة النّازيّة في العام 1945م، إلى القول: لقد صار سيّد الآلة عبدًا لها، وأمست التّقنية عدوًّا للإنسان، وحرّيّة الجماهير انتهت إلى رعب المقصلة، والتّحرير المطلق للإنسان آيلٌ إلى الدّمار الذّاتيّ.

مهما تكن التّداعيات الكارثيّة المباشرة على النّظام الإيكولوجيّ والصحّيّ، فإنّ الآثار المُترتّبة على هذه الجائحة طاولت مُجمل القيم الحاكمة على الحياة الإنسانيّة المعاصرة. فما يقال عن أنّ عالم ما قبل الجائحة ليس هو عالم ما بعدها، هو قول حقيقيّ. ومِنْ ثَمَّ، فهو يعرب عن استشعارٍ واقعيّ لتحوّلات يُتوقّع أن تطيح بمنظومة شاملة من الثّوابت الّتي حكمت العالم على مدى قرون خلت.